حياة ابن خلدون

ومُثُل من فلسفته الاجتماعية

خاتمة محاضرة الاستاذ السيد محمد الخضر

— ٦ —

مُثل من فلسفته الاجتماعية

لابن خلدون فى الاجتماع والسياسة آراء سامية استمدها من مطالعاته الواسعة فى التاريخ ومشاهداته أزمان الرحلة ، اذ تقلب فى أمم ودخل في أحشاء دول . ولنسق اليكم أمثلة من فلسفته الاجتماعية التى لها مساس بمشروع جمعية أدبية كجمعية تعاون جاليات افريقية الشمالية :

المغلوب مولع بتقليد الغالب

يقول ابن خلدون ان المغلوب « مولع أبدا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده » وعلل هذا بان النفس أبداً تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت اليه اما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه أو بما تغالط به نفسها من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي انما هو لكمال الغالب . وهذه نظرية صحيحة وعلتها ظاهرة ، وهي مطردة في الاقوام الجاهلة والشعوب التى يلقى حبلها على غاربها فتأخذ في تقليد الغالب والتشبه به فى الشعار والعادات وتفرط في ذلك حتى تندمج في بنى جنسه وتفنى في قبيل عنصريته

فجدير بزعماء الشرق ودعاة اصلاحه اليوم ألا يدعوا النشء منهمكا في تقليد الامم الغربية ، ويحق عليهم أن ينعموا النظر في أحوالها ومظاهر مدنيتها ، ويميزوا بين ما كان من أسباب رقي حالتها الاجتماعية وانبساط يدها الى

القبض على أزمة السياسة فى الشرق ، فيحرضوا الشرقيين على اقتباسه واضافته الى وسائل حضارتهم ، وما كان من الاوضاع المنكرة أو أنه كان ناشئاً عن اعادة ولدنها البيئة الخاصة ضربوا عنه صفحا وأنذروا الشرق عاقبة الاقتداء به

وفحص أحوال تلك الامم وتمييز طيبها من خبيثها يحتاج الى نظر حكيم وذوق سليم فقد يجد الناظر ماقد يكون نافعا فى أوطانهم ولكن عمله في بلادنا اليوم ضرر محض . ومن أمثلة هذا اضراب التلاميذ عن الدروس احتجاجا على قضية سياسية فهذا النوع من الاضراب قد يلتجىء اليه تلاميذ دولة مستقلة حريصة على ترقيتهم في العلوم والفنون فيكون نافعا لهم وذريعة لنجاح مطلبهم ، ولكن الدولة الاجنبية لا يسوءها ان ينقطع أبناؤنا عن التعلم ليالى وايام بل يرتاح ضميرها الى أن تغلق المدارس احقابا ، حتى يتسنى لها ان تسوقهم كالانعام الى حيث تشاء

الامة المغلوبة يسرع اليها الفناء

يقول ابن خلدون « ان الامة اذا غلبت وصارت فى ملك غيرها اسرع اليها الفناء » . وجعل العلة في هذا مايحصل في النفوس من التكاسل اذا ملك امرها عليها وصارت بالاستعباد آلة لسواها فيقصر الامل ويضعف التناسل ، والاعتماد انما هو عن جدة الامل ومايحدث عنه من النشاط في القوة الحيوانية

وهذه النظرية حادثة وعلتها معقولة فيتحتم على زعماء الشعوب المغلوبة للاجنبي ان يعالجوا هذا الداء القاتل للامم الجاهلة بما يبثونه فيها من أمل الخلاص ويضربوا لها الامثال بالامم التي تخلصت من سلطة الغريب مثل اليونان وبلغاريا ورومانيا وامريكا ويعلموها أن وسيلة النجاة منافسة الغالب في اسباب القوة من

المال والعلم والاتحاد ، ويربوها على العظمة وابادة الضيم واستصغار العظائم فانها تعود الى حياة وقوة تصارع بها حاكمها الغاصب وان كانت فئة قليلة وبلغت جنود خصمها من الكثرة مالا يخطر على البال

لاتحقرن صغيراً في مخاصمة ان الذبابة أدمت مقلة الاسد

العرب والسياسة

عقد ابن خلدون في مقدمة تاريخه فصلا ذهب فيه الى أن العرب أبعد الامم عن سياسة الملك . وتدور هذه المقالة على ألسنة بعض من يريد الحط من شأن العرب ولا سيما الاعاجم الذين يريدون استعمار بلادهم وادخالهم تحت سيطرتهم ويسوقونها كالشاهد على أن العرب لا يصلحون لان يديروا سياستهم بيد مستقلة . وينقلها بعض العرب أو أنصارهم فيرمي ابن خلدون بسفه الرأي في هذه القضية ويحكم على تخطئته بحجة سداد نظرهم في السياسة واتساع فتوحاتهم أيام الخلفاء الراشدين ومن اقتفى أثرهم من دهاة الامراء وأبطال الرجال

والتحقيق أن ابن خلدون انما يقصد العرب الذين يعيشون بالبادية وقبل ان يخرجوا من ظلمات جاهليتهم الى الاهتداء بمعالم الاسلام . وعباراته صريحة في هذا الصدد . ومما قال في هذا القصد « وانما يصيرون الى سياسة الملك بعد انقلاب طباعهم وتبدلها بصبغة دينية » ثم قال « واعتبر ذلك بدولتهم في الملة لما شيد لهم الدين أمر السياسة بالشريعة وأحكامها المراعية لمصالح العمران ظاهرا وباطنا وتتابع فيها الخلفاء عظم حينئذ ملكهم وقوى سلطانهم »

خرجتُ يوما من برلين على سكة الحديد الى بعض نواحيها وكان في رفقتي اثنان مع مستشرق الالمان . وبعد قليل أقبل عليّ أحدهما وقال لي : أليس هكذا يقول ابن خلدون : ان العرب أبعد الامم عن سياسة الملك ؟ فقلت له انما

يريد العرب فى عصر جاهليتهم وأما بعد أن تحلوا بهدى الاسلام فقد أصبحوا كغيرهم من الامم: يجيدون النظر في السياسة ، ويديرون زمامها على بينة . فلاح على وجهه الامتعاض من هذا الجواب . وليست المانيا أقل شرهاً وحرصا على استعباد الشعوب الشرقية من بقية دول الاستعمار

ويوضح ما قاله ابن خلدون من قلة خبرة العرب ايام جاهليتهم بمذاهب السياسة انهم كانوا مغلوبين لطبيعتين لاينتظم معهما امر الملك وادارة شئون الجماعة :

احداهما ـ الانتصار لمثل الجار والقريب والصاحب والحليف وان كان ظالما . وكانوا يرون هذه الطبيعة من مقتضيات صحة العهد وغزة الجانب . والسياسة انما تقوم على قاعدة المساواة ، وحماية الحقوق من ايدى المعتدين عليها ، لافرق بين بعيد وقريب ، وعدو وحبيب . ويعتبر هذا بالحكومات الاجنبية فانك تجدها تعبث بقاعدة المساواة في البلاد المحتلة فتستخف بحقوق الوطنيين وترفع أبناء جنسها عليهم درجات ، وهذا أول العلل التى تجعل سياستها منكرة ووطأتها لاتطاق

ثانيتهما ـ المسارعة الى مؤاخذة المسيء والانتقام منه بدافع طبيعة اباية الضيم ، والسياسة تقضى باحتمال بعض الاذى والاغضاء عن كثير من الهفوات. واقم الوزن بالقسط فى الحكومات السائدة فانك ترى الحكومة التى هي اطيش حلما واخف يدا الى ارهاق من تسيهم بجرمين سياسيين فتستيقن انها اقصر عمرا وأن بغضها في قلب شعبها احر من جمر الغضا

وقد حارب الاسلام هاتين الطبيعتين حتى اخرج من العرب موازين قسط وعدالة كعمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز رضى الله عنهما ، وجبال حلم واناة كمعاوية بن ابي سفيان والمأمون بن هارون الرشيد رحمهما الله